ضغوط النار والجوهر الصلب :
توفيق صايغ ، كما عرفته

جبرا ابراهيم جبرا

لا ، لم يكن ليخطر لي ببال قط ، طوال هذه السنين الكثار ، أنني سأكتب عنه بعد موته . بل — ويا للسخرية — كنت أغذيه دوما بتفاصيل عن حياتي ، واطلعه على كتاباتي التي لا أنشرها واحدثه بما لا احدث أحدا عن دواخل ما اكتب وما أفعل ، جاعلا منه نجيا كما لم أجعل احدا ، لانني كنت اعتقد انه هو الذي سيحيا بعدي ليكتب عني ، وليس لي أحد مثله من حيث عمق المودة والتجاوب ، فكانه شق آخر لنفسي ، ولن يفهمني أحد مثلما يفهمني — بذلك الذكاء المفرط ، وذلك القلب الكبير. ولكن قوة ما خدعتنا ، خدعتنا كلينا . أخذتنا كلينا على حين غرة ، واختطفته الى حيث قلبت لنا الميزان ، وضحكت من الجميع .

لا ، ما كنت اظن اني سأكتب عنه بعد موته . كنت اتمنى ان اكتب عنه وهو حي . كنت — ولاكن مغرضا غرض الحب والاعجاب — اتمنى لو أحدد له بعضا من عبقريته في كل ما يكتب ، اكثر بكثير مما فعلت في مقالتين او ثلاث ورسائل كثيرة . بل كنت اشتهي ، مثله ، لو أننا يوما ننشر رسائلنا معا على رؤوس الاشهاد ، كما فعل ادباء كثيرون في العالم قبلنا ، لعلنا نوضح الكثير من تلك الفكر التي لم يتح لنا ان نجلوها كلها في ما كتبنا ونشرنا. غير ان ذلك بقي قيد التمني ، قيد المماطلة التي تضحى على مر السنين عادة يصعب قهرها . وكنت ، في السنوات الاخيرة ، في قلق متزايد عليه . كنت أراه يكتب أقل فأقل ، وأعرف السبب. حتى رسائله باتت أقل وأوجز . جعلت أعاتبه ، اذ يجعل الرسالة في صفحة واحدة ، كأنها « سونتة » لا يمكن ان تتجاوز قواعدها وتتخطى الحد المفروض عليها ، وهو الذي كسر ألف قاعدة، وتخطى ألف حد . ولكن العتاب صعب عندما تعرف السبب . هنا رجل أعطى الناس حبا ، فالبسوه اكليلا من الشوك . مد لهم يده ، فدقوا فيها المسامير . ولكن لا . لم يمد يده للناس . لقد مدها لله ، للمسيح — غير ان اناسا غفل عنهم اخذوها بأنيابهم . « الجمهور — الكلب »، تلك عبارة خطها في احدى رسائله الي ، يوم رأى كم من هذا الجمهور « اقبل » على « القصيدة ك » (بعد ان « أقبل » على ديوانه « ثلاثون قصيدة ») ، وأدرك ان لا صلة له بالجمهور . ولئن كان له ان يرضى بملاحقة سلوقي السماء له ، ويجد كبرياء ماسوكية في ان يضحى طريد اله يعشقه ويقارعه ويراوغه ، فانه ما كان يدري ان سلوقي الارض ، والزبد على شدقيه ، سيحاول ملاحقته ايضا ، ولا عشق بينهما . ولما تحقق من ذلك ، في سنواته الاخيرة ، اراد ان يضع نفسه في معزل عن الناس . ذهب بعيدا يشغل نفسه بالتعليم في امريكا — بالمحاضرة الى صفوف صغيرة من أفراد يستطيع ان يريهم ما يرى هو في التاريخ ، في اللغة ، في الادب ، في الخلق الجديد . لعله يجد عزاء عن نفي نفسه من جديد .

لم اعرف رجلا كتوفيق صايغ أحاط بعلم كثير كما أحاط وأصغى الى الناس كما أصغى — ومع ذلك لم يؤمن الا بما كان يحس انه نابع من أعماقه هو . كانت المعرفة لديه ، وهو لا يمل مطالعة كل ما ندر من كتب ومجلات ، من شعر ونثر في العربية والانكليزية ، وسيلة لطمأنة نفسه انه ، بما يؤمن به ، على حق . أما الشك فكان لديه تجربة دينية محضا . كان شكه بحرانا صوفيا ، واثخانا لجراحات قلبه . انه شك العاشق في من يحب : مقاساة داخلية ، تفردية ، تزيد في النهاية من ولعه ووجده . ولكنه لم يكن شكا في صحة موقفه من